من تجليات مفهوم البقاء في مشروع التراث والتجديد لحسن حنفي

د. محمد صالحين(*)

يُعدُّ مشروع حسن حنفي «التراث والتجديد» من المشروعات النادرة في عصرنا هذا، من حيث كُتبَ له الاستمرارية، بل أوشك صاحبُه على الانتهاء منه؛ كما أخبرنا بنفسه.

وبتعبير صاحبه: هو «أهم وأكبر مشروع يعبر عن الوضع الحضاري، في نهاية القرن الرابع عشر، وبداية القرن الخامس عشر الهجريين، نهاية القرن العشرين، وبداية القرن الحادي والعشرين الميلاديين، وليعبر من مرحلة جديدة من تطور الحضارات، ودورانها في العالم، وإغلاق الفترة العثمانية، واستئناف الإصلاح الديني، وتحويله إلى نهضة شاملة، في مرحلة ثالثة من الحضارة الإسلامية، تلحق بالمرحلة الأولى، في القرون السبعة الأولى؛ من الأول حتى السابع؛ مرحلة الازدهار التي أرخ لها ابن خلدون، وتغلق المرحلة الثانية في القرون السبعة التالية؛ من القرن الثامن حتى القرن الرابع عشر الهجريين؛ لتبدأ المرحلة الثالثة؛ قرون سبعة ثالثة؛ من الخامس عشر، حتى الواحد والعشرين الهجريين.(١)

التراث والتجديد إذن: مشروع مفصلي؛ كما حدث في الحضارة الغربية عند ديكارت (١٦٥٠م): أنا أفكر: فأنا إذن موجود، ومشروع بيكون (١٦٢٦م): الآلة الجديدة.

قضية البحث

تأتي الورقة البحثية تحت عنوان (من تجليات مفهوم البقاء)، في مشروع حسن حنفي؛

(*) أستاذ مساعد بقسم الفلسفة الإسلامية - كلية دار العلوم جامعة المنيا.

(٢) حسن حنفي، من الفناء إلى البقاء.. محاولة لإعادة بناء علوم التصوف، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م، ج١، ص١٤.

في بيانه الأول: «موقفنا من التراث»؛ بمحاوره الأربعة: «من العقيدة إلى الثورة، من النقل إلى الإبداع، من النص إلى الواقع، من الفناء إلى البقاء»، وليس في محور إعادة بناء علوم التصوف فقط؛ كما قد يتبادر لأول وهلة؛ لأن الباحث يريد معالجة بعض تجليات هذا المفهوم على نطاقه الواسع، وليس حصره في زاوية لا تمثل الهدف من البحث، والواقع أنه ليس بوسع الباحث أن يتناول تجليات مفهوم البقاء في البيان الثاني للمشروع: (موقفنا من التراث الغربي)؛ لأنه يُضَخِّمُ البحثَ أكثر مما تحتمله الطاقةُ الفردية، وأما البيان الثالث: (موقفنا من الواقع.. نظرية التفسير) فلمَّا يصدرْ بعدُ، على حد علمنا.

من أسباب اختيار قضية البحث:

هذا، وقد دفعتني أسبابٌ عديدة إلى دراسة تجليات هذا المفهوم في «التراث والتجديد»؛ منها:

- أن (بقاء الإنسان) هو ساحة حسن حنفي الفكرية؛ بقاءه هو؛ كمفكر ثائر، وبقاء من حوله؛ من موطنيه، ومجتمعه، وأمته، وعالمه، وما أجدر أن نبحث مفهومًا اختار صاحبُه أن يجعله عنوانًا للمنازلة الفكرية، في مشروعه العريض، العميق.
- وأنه مفهومٌ مظلةٌ؛ لمشروع حسن حنفي؛ فهو يبحث عن البقاء الذاتي في زمن ذوبان الهويات الخاصة، وتلاشي الانتماءات الوطنية، وضعف الثقافات القومية، فكان (البقاء) هو الغمامة التي تظلل هذا المشروع، في كافة مراحله، وتحته تندرج عشرات المفاهيم، وربما مئاتها.
- وهو كذلك مفهوم حاكم لكل مشروع التراث والتجديد؛ بمحاوره الأربعة الرئيسة، وما انبثق عنها من فروع؛ كروافد الاستغراب، وحوار المشرق والمغرب، وحصار الزمن، والإسلام اليساري، وموسوعة الحضارة الإسلامية، وغيرها من الروافد والفروع للمشروع الرئيس، فقد رأيتُ أن «مفهوم البقاء» ينساح في كافة دروب هذا المشروع الكبير؛ الرئيسي منها، والفرعي، لا يلوي على شيء، اللهم إلا ضمان البقاء الإنساني؛ للفرد، والأسرة، والمجتمع، والدولة، والأمة؛ في زمن العولمة المتغول على كل أحد، وعلى كل شيء!
- وهو مفهومٌ واضحٌ، ومقيسٌ، يُمكن أن تُحددَ خريطتُه، وتبينَ معالمُه، وتُوضعَ

أركانُـه، بشيء كثير من اليسر، عكس مفاهيم أخـرى، يعتريها الالتباس، وتحيط بها الإشكالات، وتبقى وجهات النظر فيها متباينة إلى حد التناقض؛ ربما!

- ومـن أهم الأسـباب: جِـدَّةُ الموضـوع، فقد حظي مشروع حسـن حنفـي بكثير من البحـوث والدراسـات[1]، غـير أن (مفهوم البقـاء) لم يطرقْه أحد مـن قبل، على حد علمي؛ مما قد يضيف بُعْدًا مقرِّبًا إلى المشروع الفكري الكبير.
- وأخـيرًا: فإن «البقاء» مفهـومٌ قابلٌ للتطبيق؛ لأن به من المرونـة النظرية، والأريحية الفكريـة، مـا يجعله صالحًـا للتنفيذ، عـلى كافة الأصعـدة الحيوية، في حقبـة زمنية خطـيرة، نواجه خلالها تحديات مصيرية، في مجرد «بقائنـا» ضمن عداد هذا الكون، بَلْهَ أن نكون رقمًا صعبًا فيه.

تقسيم البحث

وجاءت هذه الورقة البحثية -بعد توطئة قصيرة- للكشف عن تجليات مفهوم البقاء في زاويتين جامعتين من زوايا مشروع التراث والتجديد:

[أ] الزاوية الأولى: من التجليات العقدية والروحية لمفهوم البقاء؛ وتشمل محوري الكلام، والتصوف في المشروع.

[ب] الزاوية الثانية: من التجليات الفكرية والحيوية لمفهوم البقاء؛ وتشمل محوري الفلسفة، وأصول الفقه في المشروع.

خاتمة: فيه خلاصة نتائج البحث.

---

(١) من هذه الدراسات: - عبد المنعم تليمة، التراث والتجديد، - ناهض حتر، في نقض منطق تجديد التراث، - ناهض حتر، التراث.. الغرب.. الثورة.. بحث حول الأصالة والمعاصرة في فكر حسن حنفي، - محمود إسماعيل، أدلجة التراث، - محمود أمين العالم، الوعي.. والوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر، - عزيز العظمة، التراث بين السلطان والتاريخ، - محسن الميلي، ظاهرة اليسار الإسلامي، - كريم الصياد، مدخل لقراءة «التراث والتجديد» لحسن حنفي.... وغيرها كثير.

توطئة

البقاء اصطلاحًا هُوَ: سلب الْعَدَم اللَّاحِق للوجود، أَو اسْتِمْرَار الْوُجُود فِي الْمُسْتَقْبل إِلَى غير نِهَايَة، وَهُوَ أَعم من الدَّوَام، والدائم الْبَاقِي: هُوَ الله تَعَالَى؛ بافتقار الموجودات إليه، وهو كذلك: الْوُجُود المستمر، فَيكون أخص من مُطلق الْوُجُود، وَالْمَعْقُول من بَقَاء الْبَارِي: امْتنَاع عَدمه، كَمَا أَن الْمَعْقُول من بَقَاء الْحَوَادِث: مُقَارنَة وجودهَا لأكْثر من زمَان وَاحِد بعد زمَان أول، وَذَلِك لَا يعقل فِيمَا لَيْسَ بِزَمَان، وَامْتِنَاع الْعَدَم ومقارنة الزَّمَان من الْأُمُور الاعتبارية الَّتِي لَا وجود لَهَا فِي الْخَارِج، وَالْبَاقِي بِنَفسِهِ لَا إِلَى مُدَّة هُوَ الْبَارِي، وَمَا عداهُ بَاقٍ بِغَيْرِهِ، وباق بشخصه إِلَى أَن يَشَاء الله أَن يفنيه؛ كالأجرام السماوية، وَالْبَاقِي بنوعه وجنسه دون شخصه وجزئه؛ كالإنسان والحيوانات، وَالْبَاقِي بشخصه فَهِيَ الْآخِرَة كَأَهل الْجنَّة، وبنوعه وجنسه هُوَ ثمار أهل الْجنَّة، كَمَا فِي الحَدِيث؛ وكل عبَادَة يقْصد بهَا وَجه الله فِيهِ الْبَاقِيَات الصَّالِحَات.(١).

وبداية فنحنُ هنا نعرض لبعض تجليات مفهوم البقاء الإنساني، لا غير في التراث والتجديد.

ويرصد حسن حنفي صفة «البقاء الإلهي» عند المتكلمين رصدًا دقيقًا؛ حيث يقرر أنها صفة برزت كاسم فعل «باق»؛ أي: كائن مشخص، قبل أن تتحول إلى وصف مجرد، بعد: موجود، قديم، واحد، أحد، ويذكر في صيغة إنشائية، بعد القدم والأول، على أنه لا آخر لدوامه دون صفة البقاء؛ مما يدل على أن التجربة سابقة على المصطلح، وقد يذكر في التمهيدات، مع واجب الوجود، مع استحالة الفناء، وقد يذكر في صيغة سلبية؛ ضمن العشرين صفة، على أنه استحالة طرد العدم، أو إحالة العدم؛ مما يدل على أنه وإن لم يكن وصفًا سلبيًّا، إلا أنه من الأضداد، وأن السلب أصل الإيجاب، والتنزيه سابق على التشبيه.(٢)

ثم يظهر «البقاء» كمسألة مستقلة، تدل على أن الوصف بدأ يتموضع، ويصاغ ويتفرد، ويتحول إلى وصف مستقل، من مجرد تعبير إنشائي عن عواطف الإجلال والتعظيم، وتتداخل صفة البقاء مع صفات المعاني السبع، وتظهر كصفة معنى، وليس كصفة ذات، بعد صفات

(١) يُنظر: أبو البقاء الكفوي؛ أيوب بن موسى الحسيني القريمي الحنفي (ت١٠٩٤هـ)، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تح. عدنان درويش، محمد المصري، ن. مؤسسة الرسالة، بيروت، د،ت، ٢٣٧/١، ٢٣٨.

(٢) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة، الإنسان الكامل (التوحيد)، ج٢، ص١٢٥، ١٢٦.

المعاني السبع، وقبل صفات التشبيه، وقد تأتي بعد الصفات السبع، ولا يذكر منها إلا الوجود، وكأنه نتيجة للقدم؛ فما وجب قدمُه: وجب بقاؤه، ويثبت على أنه إثبات للمعاني، وهو أن الذات باقٍ ببقاء، وليس مما اتفق عليه الجميع، وأنها صفة ثبوتية مختلف عليها، ويظهر البقاء بعد أوصاف الذات، وبعد صفات المعاني السبع، وقبل الرؤية، وبعد صفات التنزيه والوحدانية،... وعندما يستقر البقاء النظري؛ كثالث وصف فيما يجب لله، كما يظهر في نفي طرد العدم؛ كثالث وصف فيما يستحيل على الله من الصفات العشرين المضادة، كما يذكر البرهان على وجوب البقاء، كما يظهر كأحد الأضداد الخمسة والعشرين، الفناء ضد البقاء، ويظهر أيضًا كثالث وصف في تفسير لا إله إلا الله؛ على أنه المستغني عن كل ما سواه، وفي بعض الحركات الإصلاحية الحديثة: يظهر القدم والبقاء ونفي التركيب كأحكام واجبة.[١]

والأدلة على إثبات البقاء ليست منفصلة عن الأدلة لإثبات الوجود والقدم، فهو ثلاثي واحد، كما لا تنفصل أدلة ثبوت البقاء كصفةٍ، عن أدلته لإثباته زائدًا على الذات، أو عين الذات، وهو السؤال الرئيسي في موضوع الصفات.[٢]

ثم يدلي حسن حنفي برأيه قائلاً: (والحقيقة أن البقاء وإن لم يكن من السلوب، وأن الصورة اللفظية له ليست منفية بلا أو ليس، إلا أن البقاء من الأضداد، عكس الفناء، ويظل السلب أصل الإيجاب) ثم يضيف: (وبصرف النظر عن إثبات البقاء كصفة زائدة على الذات، أو هي عين الذات: فإن الذي يدل على البقاء عند جمهور المتكلمين هو أن كل واجب الوجود لذاته يستحيل عليه العدم؛ أي: أن البقاء متضمن في مفهوم واجب الوجود، وبالتالي يكون تحصيل حاصل، ولو كان قابلاً للعدم لاحتاج إلى معدم، والمحتاج المفتقر يكون محدَثًا، وهذا في حقيقة الأمر هو إثبات الشيء عن طريق نفي الضد، وهو برهان الخلف، ويظل دليلاً سلبيًّا؛ كما أنه قد ينعدم لذاته بطبيعته، دون ما حاجة إلى تشخيص علة فاعلة، ولو انعدم لانعدم لذاته، أو لإعدام معدم، أو لطريان ضد، أو لزوال شروط، وكلها باطلة، والحقيقة أن إبطال الانعدام هو تكرار للحجة السابقة، وهو يكشف عن تشخيص الأفكار بألفاظ الحاجة والعوز والفقر.)[٣]

ونصل إلى بيت القصيد؛ حين يقرر حسن حنفي أن البقاء: «تجربة إنسانية؛ البقاء للفكر

(١) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة، الإنسان الكامل (التوحيد)، ج٢، ص١٢٦، ١٢٧.
(٢) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة، الإنسان الكامل (التوحيد)، ج٢، ص١٢٧، ١٢٨.
(٣) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة، الإنسان الكامل (التوحيد)، ج٢، ص١٢٧، ١٢٨.

بعد الموت، والبقاء للذكريات بعد مغادرة العالم، بقاء الإنسان في شعور الآخرين، والبقاء للمعاني والأفكار، فالحقائق لا تموت، والحقائق الثابتة باقية لا تتغير، البقاء للأفراد والأبطال الذين يخلدون، يعبر عن رغبة في الخلود، وباعث على قهر الموت والفناء، البقاء للأعمال الصالحة التي تتولد في العالم، للأثر الطيب الفعال، للسنة الحسنة التي تبقى في التاريخ بقاء الآثار، وهي المعاني الموجودة في تحليل لفظ البقاء في أصل الوحي، فلا يبقى الباطل ولا الزيف، ولا يبقى إلا الحق والشرع، البقاء للخير والرزق، والصلاح والذرية والشعوب؛ التي تقاوم الفساد في الأرض، أكثر مما هو وصف لذات الله.»(١)

ثم يختتم حسن حنفي هذا المبحث الشائك الشائق برصد أصل (البقاء) ومشتقاته في القرآن الكريم؛ حيث يقول: استعمل لفظ البقاء ومشتقاته في القرآن ٢١ مرة، ولم يذكر على الإطلاق في صيغة «بقاء»؛ أي: اسم الفعل؛ مما يدل على أنه لا وجود لمثل هذا المعنى التجريدي، في صفة؛ لاسم، أو لجوهر، أو لموجود، وأكثر الصيغ فعلية ١١ مرة، أما الصيغ الاسمية فإن تسعًا منها أسماء، وواحد فقط صفة (باقٍ)، وهو لا يصف الله، بل ما عند الله؛ أي: الثواب على الأعمال الإنسانية، وثلث الاستعمالات (٧مرات) يفيد اللفظ معنًى سلبيًّا، إما عن طريق النهي: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ [البقرة: ٢٧٨]، أو عن طريق الإفناء من الله: ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥١]، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَٰقِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٠]، ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨]، أو عن طريق الإفناء من النار: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١]، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ [المدثر: ٢٧ - ٢٨]، أما المعاني الإيجابية (١٤مرة): فمعظمها لوصف معانٍ، أو أشياء، أو أفراد، أو أقوام (١٢مرة)، وليس لوصف الله إلا مرتين؛ ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣]، والله هنا: أي الحق غير المشخص، أو ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] التي استعملها القدماء وحدها، ولا تعني أيضًا الوجه المشخص، بل: وجود الحق، أما الاستعمالات الاثنا عشر الأخرى -أي أكثر من نصف الاستعمالات- فإنها غير مشخصة: ما عند الله، النعيم والجزاء، الرزق، الكلمة؛ أي: المعنى والدرس، الأعمال الصالحة، الذرية، والأهم من ذلك كله: هم الأفراد الذين يقاومون الفساد في الأرض: «أولوا بقية ممن ينهون عن الفساد في الأرض»(٢).

---

(١) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة، الإنسان الكامل (التوحيد)، ج٢، ص١٣٣.

(٢) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة، الإنسان الكامل (التوحيد)، ج٢، هامش ص١٣٣، ١٣٤.

وجدير بالتنويه هنا أن نثبت بعض معاني (التجلي)؛ لغة، واصطلاحًا؛ ليستبين مقصودُنا من استعماله في عنوان هذه الورقة البحثية:

قال صاحب مقاييس اللغة: «(جَلَوَ) الْجِيمُ وَاللَّامُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ: أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَقِيَاسٌ مُطَّرِدٌ، وَهُوَ «انْكِشَافُ الشَّيْءِ، وَبُرُوزُهُ»، يُقَالُ جَلَوْتُ الْعَرُوسَ جَلْوَةً وَجَلَاءً، وَجَلَوْتُ السَّيْفَ جَلَاءً، وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: السَّمَاءُ جَلْوَاءُ أَيْ مُصْحِيَةٌ، وَيُقَالُ تَجَلَّى الشَّيْءُ، إِذَا انْكَشَفَ، وَرَجُلٌ أَجْلَى: إِذَا ذَهَبَ شَعْرُ مُقَدَّمِ رَأْسِهِ؛ وَيَقُولُونَ: هُوَ ابْنُ جَلَا: إِذَا كَانَ لَا يَخْفَى أَمْرُهُ لِشُهْرَتِهِ....»[١] (٤٦٨/١).

قال أبو البقاء: التجلي: هُوَ قد يكون بِالذَّاتِ نَحْو: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٢] وَقد يكون بِالْأَمر وَالْفِعْل نَحْو: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣][٢]، وفي معرض تعريف اليوم قال: «وَالروح الْكُلِّي فِي مرتبَة كَمَال الْقُوَّة النظرية والعملية يُسمى عقلاً، وَفِي مرتبَة الانشراح بِنور الْإِسْلَام يُسمى صَدرًا، وَفِي مرتبَة المراقبة والمحبة يُسمى قلبًا، وَفِي مرتبَة الْمُشَاهدَة يُسمى سرًّا، وَفِي مرتبَة التجلي يُسمى روحًا.»[٣]، ثم قال: «وَأحسن مَا قيل فِي الْكَشْف عَن مَاهِيَّة الْعلم: هُوَ أَنه صفة يتجلى بهَا الْمَذْكُور لمن قَامَت هِيَ بِهِ فالمذكور يتَنَاوَل الْمَوْجُود والمعدوم، والممكن والمستحيل، والمفرد والمركب، والكلي والجزئي، وَخرج بالتجلي الظَّن وَالْجهل الْمركب واعتقاد الْمُقَلّد الْمُصِيب أَيْضا إِذْ التجلي الانكشاف التَّام.»[٤]

[أ] الزاوية الأولى: من تجليات عقدية وروحية لمفهوم البقاء في التراث والتجديد

يقرر حسن حنفي أن التراث والتجديد قد كُتِبَ: من أجل دحض شبهة شائعة، روجها المستشرقون، أو بعض الباحثين العرب المتأثرين بالاستشراق، وتصحيح حكم سابق، إما على مجمل التراث، أو أحد علومه.

---

(١) ابن فارس، أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، تح. عبد السلام محمد هارون، ن. دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ١/ ٤٦٨.

(٢) أبو البقاء الكفوي، الكليات، م. س، ص٣١٣.

(٣) السابق، ص٤٧١.

(٤) السابق، ص٦١٢.

ومن هنا فحسن حنفي يريد البقاء لكونه، ولأمته ضمن الكون، ولثقافة الأمة؛ عقيدة، وعبادة، وسلوكًا، وفكرًا، دون أن يشدنا التراث إلى التاريخ الماضي، ودون قطيعة مع الآخر؛ الأوربي، أو الأمريكي، أو الأسيوي، دون أن تذيبنا قوة الحضارة الغربية المتعملقة، ودون قطيعة مع الماضي الذي بقي شامخًا سبعة قرون على الأقل من الزمن.

ويتجلى مفهوم البقاء في الزاويتين؛ العقدية والروحية، في مشروع التراث والتجديد بمضامين ورسوم شتى منها:

[أ/١] ألا تكون مقدماتُ علم العقيدة هي نتائجَه؛ حتى لا يكون ما بينهما لهوًا ولعبًا، ولا يكون التسليم بالإيمان نقضًا للبرهان، وهدمًا للاستدلال، وضياعًا للعلم![١]

[أ/٢] أن يحضر الأسلوب البرهاني بكل قوة، مع عرض الإشكالات، وبيان الأهداف.[٢]

[أ/٣] والبقاء العقدي يكون في تحديد علاقة الإنسان بالله تعالى، على مستوى السلوك والعمل؛ تمامًا كما على مستوى المعرفة والنظر، لا يغني أحدهما عن الآخر، فتعدل بوصلة الجماهير من السلبية إلى الإيجابية، ومن الانتظار إلى المبادرة، ومن ترقب الهبات إلى السعي والعمران، ومن استجداء الحقوق إلى انتزاعها، ومن الحمد على الكفاية إلى تكميل الناقص، ومن الثناء إلى النقد.[٣]

[أ/٤] أن يكون المحور العقدي قارنًا أزمةَ العصر، محللاً إياها، مقدمًا حقائقَ ملموسة لحل أزمات العصر، وفك رموزه من التراث ذاته؛ لأنه المخزون النفسي لدى الجماهير المتطلعة إلى «بقاء إنساني كريم»؛ من ناحية، ولأنه الأساس النظري لأبنية الواقع؛ من ناحية أخرى.[٤]

[أ/٥] البقاء العقدي يكون بقوة الطالب (الإنسان) كلما شعر بقوة المطلوب (الله تعالى) وليس العكس -كما نراه ماثلاً في واقعنا المنكوب- كلما قوي المطلوب ضعف الطالبُ؛ حتى تقلع الجماهير عن تقديس القوة في أيٍّ من مظاهرها؛ فتنتقل من السلطان الديني، إلى السلطان

(١) يُنظر: حسن حنفي، من العقيدة إلى الثورة، المقدمات النظرية، دار التنوير، بيروت، ط١، ١٩٨٨، ج١، ص٧.

(٢) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ١/ ٧.

(٣) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص١٢، ١٣.

(٤) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ١/ ٧.

السياسي، وتكون هي التي بذرت بيديها بذرة الاستبداد السياسي التي ما تزال تعاني منه، ويضمحل بقاؤها إلى مجرد بقاء أشباح![١]

[أ/٦] والبقاء يعني: الإيمان بأن معرفة الحق والباطل، والتمييز بين الصواب والخطأ: تأتي من تأمل المعطيات الإنسانية؛ الفكرية منها، والواقعية، والمعرفة النظرية لا تأتي كهِبَةٍ مسبقة، بل عن طريق التحليل العقلي الرصين؛ للأفكار والوقائع معًا، وباستقراء مجريات الحوادث الآتية.[٢]

[أ/٧] البقاء العقدي يبقى رهينًا ليقظة الوعي الفردي، وتجنيد الجماهير؛ حيث يتحول الوعي الفردي إلى معبر عن وعي الجماعة؛ فتكون الجماهير هي الدرع الواقي، وتكون الطليعة هي رأس الحربة؛ لأنه لا يوجد صمام إمان إلا في وعي الإنسان بذاته، وليس في (عقدة القبة السماوية)؛ التي تغطي الأرض.[٣]

[أ/٨] البقاء العقدي يكون: بتأكيد ذات الإنسان، وإعمال عقله، وإحساسه بالمسؤولية، وتحقيق رسالته على الأرض، ووعيه بالجماهير، وإدراكه حركة التاريخ، ومعرفة المسؤول عما وصل إليه حالُنا؛ من الاحتلال، والتخلف، والقهر، والطغيان، والفقر، والبؤس، والضنك، والحرمان، والتشرذم، والتبعثر، والذل، والهوان، والأزمات، والنكبات، وليس بمجرد إلقاء التبعات على قضاء وقدر، أو إبراء الذمة؛ ليتحول الخالص مسؤولاً عن الشوائب، والبريء مسؤولاً عن ذنوب العصر، والغني مسؤولاً عن الفقر، والعادل مسؤولاً عن الظلم، والقوي مسؤولاً عن الضعف، والقيوم مسؤولاً عن الاحتلال، والواحد مسؤولاً عن التجزيء، والتفتت، والتبعثر، والتمزق، وهو ما يعني «فناء» الإنسان من الناحية العقدية، وهذا لا يعني رفض الشمول والعموم، إنما يعني أنهما خاصان بالأفكار والمباديء؛ فيَرْشُدُ العقل، وتقوى الإرادة، وتثبت الذات، ويبقى الإنسان العاقل المكرم المكلف![٤]

[أ/٩] البقاء العقدي يحتاج مع الصلاة إلى العلم، ومع التراتيل الدينية إلى التحليل العقلي، ومع سلامة الاعتقاد إلى سلامة المنهج اليقيني، ومع التركيز على الشخص إلى التركيز على الرسالة، ومع القدوة المشخصة إلى القدوة التاريخية، ومع الفكر إلى إمكانية تحقيق هذا الفكر.[٥]

---

(١) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص٧: ٩.
(٢) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص٩.
(٣) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص١١.
(٤) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص١١، ١٢.
(٥) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص١٣، ١٤.

[أ/١٠] والبقاء العقدي يكون بإدراك أن فضل الرسول ﷺ نابعٌ من الوحي، ومآثره مقتبسة من الرسالة، وعظمته مستقاة من الجهاد، وقدوته متمثلة في الأخلاق؛ حتى لا نخلط بين الوسيلة والغاية، فنكون قد اقتربنا -بكل أسف، وبدون قصد- من عقيدة الاصطفاء اليهودية، وعقيدة الخلاص المسيحية؛ وكلتاهما باطل.(١)

[أ/١١] والبقاء العقدي يحتاج مع شهادة التوحيد إلى الشهادة على العصر؛ ببيان الهوة السحيقة بين نظام الواقع، ومقتضى الفكر، ثم محاولة جسر هذه الهوة؛ حتى لو كان ثمن ذلك: تحول الشاهد إلى شهيد؛ في سبيل الشهادة العقدية العملية.(٢)

[أ/١٢] والبقاء بشهادة التوحيد يكون سلبًا، وإيجابًا؛ سلبًا بنفي كل آلهة العصر المزيفة، والكفر بها، وإيجابًا بتحرر الوجدان من كل صنوف القهر والظلم والعسف والطغيان والتسلط.(٣)

[أ/١٣] وكذلك البقاء بشهادة الرسالة للنبي ﷺ تعني الإعلان عن اكتمال الوحي، وختم النبوة، وتحققها في نظام، وتجسدها في دولة، مع التقدم بحركة التاريخ، وعدم التنكب عن مساره، وحركة تطوره، فالعلماء ورثة الأنبياء، والاجتهاد طريق الوحي، والعقل وريث النبوة.(٤)

[أ/١٤] يكون البقاء العقدي بالفكر المصلحي، لا بمجرد العاطفة النبيلة، ويكون بحضور الفكر والواقع معًا، ويكون بالرؤية والتحليل، لا بمجرد التلاعب باللغة وبلاغتها، وبالفصل بين السلطانين؛ الديني، والزماني؛ لأنه إذا حضر العقل: خف مديح سلاطين الأرض!(٥)

[أ/١٥] يكون البقاء العقدي بالإقلاع عن التملق والمداهنة والتزلف والوصولية والانتهازية والنفاق والخداع والكذب، ويتحول ذلك كله إلى الشورى والرقابة والنقد والرفض حتى الثورة، ويتحول الفكر إلى مركز السلطات، ويتحول السلطان إلى منفذ لقانون الفكر الجماهيري، مطيع للقضاء، مستمع إلى الشورى، قابل للنصح.(٦)

---

(١) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص١٤، ١٥.
(٢) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص١٨.
(٣) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص١٩.
(٤) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص١٩.
(٥) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص٢١: ٢٤.
(٦) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص٢٥.

[أ/١٦] يكون البقاء العقدي بالتحول إلى الإصلاح والنهضة، والاتجاه إلى التغيير والثورة، دون تملق لسلطان، ولا رغب في عطاء، ولا رهب من منع.(١)

[أ/١٧] يكون البقاء العقدي بالدفاع عن الأمة، مقرونًا بالدفاع عن الدين، ويكون بتحرير الأرض المغصوبة، مقرونًا بدفع الإلحاد الديني؛ لأن التوحيد في جوهره: فتحٌ وجهاد؛ جهاد ضد من استباح حرمات المسلمين، وانتهك أعراضهم، واحتل أرضهم، ونهب ثرواتهم، واستولى على مقدراتهم، وأصدر القرارات التي تخصهم في غيابهم.(٢)

[أ/١٨] يكون بقاؤنا العقدي بالاستمرار في التأصيل العقلي لعقائدنا الإيمانية، مع زيادة التأصيل الواقعي، والتأصيل للحريات الإنسانية، والتأصيل للعمل والتطبيق، والتأصيل لقيمة الأرض والعرض؛ بحيث تتحول العقيدة إلى ثورة، ويُطلق التوحيد من عقاله، ويوقظ الإيمان من سباته؛ ليتحول ذلك كله إلى فاعلية على الأرض، ورحكة في التاريخ.(٣)

[أ/١٩] والبقاء العقدي يرسخ كلما رسخ المنهج الوسط؛ منهج الإبداع، دون تقليد في طرف، ولا الابتداع في طرف مقابل؛ لأن كلا طرفي قصد الأمور ذميم.(٤)

[أ/٢٠] يكون البقاء بضبط بوصلة «علم أصول الدين»؛ ليمد الجماهير بتصوراتها للعالم، وبواعثها على السلوك، خاصة بعد فشل جميع الإيدلوجيات العلمانية في تحديث المجتمعات والارتقاء بها، بل إن عقائد الإيمان هي التي حافظت على هوية الجماهير، وعلى الشخصية الوطنية للبلاد؛ إبان نضالها ضد الاحتلال العسكري، فيتحول التراث العقدي إلى تجديد ثوري، ومن الإيمان القلبي إلى مطالب الواقع والعصر.(٥)

[أ/٢١] يكون البقاء العقدي بتحول الإنسان من الفردية إلى حياة الحضارة الجماعية؛ فيتحول الفرد إلى تاريخ، والزمان إلى خلود.(٦)

[أ/٢٢] ويكون البقاء العقدي بشمول نظرية الوجود للطبيعة والإنسان؛ لأنها الموصلة

(١) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص٢٩، ٣٠.
(٢) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص٢٩، ٣٠.
(٣) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص٣١، ٣٢.
(٤) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص٣٤.
(٥) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص٣٨، ٣٩.
(٦) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص٤٣.

للعقل الإنساني إلى الإيمان الراسخ بالله تعالى[١]، مع انفصال علم الكلام عن الفلسفة والميتافزيقا، وعودته إلى الوجود والعلم الطبيعي، ومع اجتهادنا في تحويل القسمة العقلية إلى تحليل عقلي خالص، يكشف عن البناء الشعوري للموضوع، وفي تحويل القسمة الوجودية إلى خبرات شعورية بالعالم؛ تكشف عن ماهيته، وتكون موضوعًا للتحليل العقلي.[٢]

[أ/٢٣] ثم يكون البقاء العقدي: بعودة علم الكلام من الحجة النقلية إلى التحليل العقلي، إلى وصف الوجود، ثم يصب في نهاية الأمر في التحليل الاجتماعي والسياسي للوعي التاريخي في حياة الأمة، وبهذا يعود علم الكلام إلى نشأته الأولى؛ أي: إلى علم أصول الدين؛ لتقرأ الأمة واقعها في العقيدة؛ فتتأصل ثورتُها من خلال عقيدتها.[٣]، ولحظتها: يكون البقاء للإنسان في السمعيات؛ وهي الشق الثاني من أصول الدين، بعد الشق الأول؛ العقليات، يكون بالتاريخ الذي يصنعه الإنسان؛ ليخلد فيه؛ لأن الخلود في النهاية للشعب صاحب الحضارة، وصانع التاريخ، الخلود عملية يساهم فيها كل الأفراد، كلٌّ يكمل الآخر؛ حتى يخلد الذهن البشري الخالق المبدع، وهو ما سماه الحكماء: (خلود العقل الفعال)، ولكنه هذه المرة عقل الأمة؛ أفرادًا، وجماعات، حالٌّ في التاريخ، وليس مفارقًا للعالم، وإن الخلود الفردي ليجد كماله في خلود الجماعة؛ في الحاضرة، والتاريخ.[٤]

[أ/٢٤] ويصل حسن حنفي إلى قمة (البقاء) بعد انتهائه من عرض القضية العقدية الكبرى الإسلام «التوحيد»؛ فيقول: «توحيد الذات والصفات -إذن- ليس توحيدًا عن طريق إطلاق قضايا موجبة؛ مثل «الله عالم»، أو سالبة؛ مثل: «الله ليس جاهلاً»، بل هو توحيد عملي، عن طريق تحقيق الأوصاف الستة، والصفات السبع، والأسماء التسعة والتسعين، في حياة الإنسان؛ الفردية، والاجتماعية، فإذا تحققت هذه الصفات بالفعل: فلن تدخل كمحمولات في قضايا خبرية إنشائية، يكون «الله» فيها موضوعًا؛ لأن الله هو وعي الإنسان بذاته، مدفوعًا خارج العالم، بعيدًا عن الإنسان، منفصلاً عنه، متحجرًا جامدًا، مهما حاول الإنسان معاودة الاتصال به عن طريق الصلاة والعبادة والشعائر؛ «الفقه»، أو عن طريق الابتهال والدعاء والمناجاة؛

(١) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص٥٨٦، وما بعدها.
(٢) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص٥٩٠: ٥٩٢.
(٣) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص٥٩٤.
(٤) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة، النبوة والمعاد، ن. مكتبة مدبولي، ١٩٨٨م، ج٤، ص٦٠٧.

«التصوف»، أو عن طريق التأمل والنظر والحكمة؛ «الفلسفة»، وقد فرّق الفقهاء قديمًا بين التوحيد النظري؛ وهو توحيد الذات والصفات، وبين التوحيد العملي، وهو تحقيق الصفات في حياة الأفراد، والجماعات. .. علاقة الإنسان بالله: علاقة حق متبادل،....، إن موقفنا الحالي حيتم علينا بيان حق الإنسان على الله، خاصة في هذا العصر الذي ضاعتْ فيه حقوق الإنسان وما زالتْ تضيع. .. لكن التوحيد العملي في خطر، في توقف وسكون، وتحول إلى توحيد فارغ بعد أن ضاعت الأرض من جوفه، وهُزِمت الأمة، وانهارت الدولة.»[(١)]

[أ/٢٥] يجد التوحيد العلمي إذن محله في العمل؛ كنتيجة، وفي الإيمان؛ كمقصد، وبالتالي فموضوع التوحيد هو في الحقيقة الأمر: مقدمة لموضوع الإيمان والعمل... فالندم باسترجاع الماضي: استرجاع سلبي، الأولى: البحث عن أسباب الفشل بالفعل؛ حتى يمكن أخذها في الاعتبار حين معاودة الفعل، أما الاكتفاء بتمني اكتفاء النقص بالرجوع إلى الوراء، وتخيل ميدان الفعل الماضي وقد اكتمل: فذلك عجز وضعف، وفي عالم يغيب عنه العدل، ولا يحكمه قانون، ولا يوجهه فكر، يكون الاتكال على الرحمة: تأييدًا لقوى العدوان، لذلك فإن عملية الخلق: ليس هو الخلق الفني المجسم، بل الخلق الإبداعي؛ مثل: دك العروش، و إسقاط التيجان، وتغيير النظم الاجتماعية والسياسية؛ كما فعل الموحدون الأوائل في إيوان كسرى، وعرش قيصر.[(٢)]

[أ/٢٦] وفي البقاء التوحيدي العملي لا بد من الانتقال إلى الدفاع عن الشعوب؛ بدلاً من الدعاء للسلاطين، إلى مدافعة القدر؛ بدلاً من الرضا بالقدر و إن ظلمًا، إلى تطبيق العدل في الأرزاق كفاية، وفي الأخلاق إحسانًا، وفي الحكم شورى؛ بدلاً من الإيمان بمجرد وجوب العدل، و إلى إحياء الإيمان بالنبوة والمعاد؛ لنستلهم منهما الاستقامة والمقاومة؛ بدلاً من الفناء في النبوة اتباعًا شعائريًا في أحسن الأحوال، وفي المعاد تزهيدًا في الدنيا، مع أن المتبع ليس منتقيًا، والزاهد ليس عاجزًا، فهو في الحقيقة الغني المتعفف، لا الفقير المتكفف.

[أ/٢٧] و يدافع حنفي عن محوره الأول: (من العقيدة إلى الثورة) بأنه ليس نيلاً من العقيدة، ولا تشككًا فيها، بل قراءتها على أنها دفاع للتقدم، بعد اتهامها بالتخلف، فهذا المحور يخاطب الثائر؛ ليؤصل ثورته، ويمد جذورها في مورثه الثقافي، وللمحافظ؛ ليقلل من محافظته، و يساهم في مسار التقدم الاجتماعي، وللعلماني؛ كي يعرف أن التراث الذي يقطع معه يمكن أن يجد فيه

(١) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة، الإنسان الكامل (التوحيد)، ج٢، ص٦٠٨: ١١٠.
(٢) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة، الإنسان الكامل (التوحيد)، ج٢، ص٦١٠، ٦١١.

بغيته، وللسلفي الذي يتصور العقائد غاية في ذاتها؛ عالمًا مغلقًا، يحتوي على حقائق في ذاتها. وليست مجرد أدوات لتغيير الواقع، وأدوات لتطويره، وللمتكلم: أنه لا يوجد علم مقدس، بل علم اجتماعي، أيديولوجي، يدخل في صراع الأفكار؛ كجزء من عملية الصراع الاجتماعي، وللعالِم الاجتماعي؛ كي يعلم أن الصراع الأيديولوجي في المجتمعات التراثية هو العامل الأكثر حسمًا في عمليات الصراع الاجتماعي، ولمزيد من التوضيح يقول: فقد كُتِبَ: من العقيدة إلى الثورة؛ لدحض شبهة أن الإسلام سبب تخلف المسلمين، وبأنه غير قادر إيديولوجيًّا على الدخول في عصر الحداثة؛ عصر العقلانية، والعلم، وحقوق الإنسان.

ثم جاءت كلمة الختام في العلم الأول (أصول الدين) «ونحن إنما نقدم من العقيدة إلى الثورة؛ اجتهادًا منا، واستئنافًا لعلم أصول الدين، بعد أن توقف منذ سبعة قرون، وتطويرًا له بعد (المواقف)، و(رسالة التوحيد)، في عصر التحرر من الاستعمار في الخارج، والقهر في الداخل، وفي فترة الردة، من قلب مصر المحمية.[١]

وخلاصة الخلاصة أن من العقيدة إلى الثورة يحاول إعادة بناء علم أصول الدين؛ كأيدلوجية ثورية للشعوب الإسلامية، تمدها بأسس النظرية العامة وتعطيها موجهات السلوك[٢]؛ فإذن ما انتقلنا إلى تجليات البقاء في الجانب الروحي من مشروع حسن حنفي فيمكننا مواصلة رصدها في البنود الآتية:

[أ/٢٧] البقاء الإيماني عند حسن حنفي أن يعني «الله» في السلوك: قوة الباعث ونقاءه، وشمول الهدف وعمومه، وبذل الجهد والطاقة، والاستعداد للتضحية والشهادة. .. العمل هو التوحيد الذي يقتضي فعله للشعور، فعل نفي ورفض، وفعل إثبات وقبول، رفض كل القوى الزائفة، القوى اللاشرعية في الطبيعة؛ مثل قوى الاستبداد والقهر، قوى الجبر والطاغوت، وإثبات قوى الطبيعة الشرعية؛ قوى الحرية والعدل والمساواة، قوى التحرر والثورة؛ الأول فعل: (لا إله)، والثاني: فعل (إلا الله)، ويسبقهما: (أشهد)؛ أي: الشهادة على العصر وأحزانه، ورؤية هزائمه ومصائبه، وإدراك هزيمه وانهياراته، بينما الشرك هو محو فعل الرفض، والإبقاء

(١) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة، الإيمان والعمل (الإمامة)، ن. مكتبة مدبولي، ١٩٨٨م، ج٥، من ص٦٥١: ص٦٥٣.

(٢) يُنظر: التراث والتجديد، المؤسسة الجامعية للدراسات النشر والتوزيع بيروت، ط٤، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، ص٩.

على فعل القبول، لكلا القوتين معًا؛ القوى اللاشرعية، والقوى الشرعية، الإخلاص: هو الواجهة الأخرى للرياء والنفاق، الإخلاص تحقيق لفعل الشعور؛ الرفض والقبول، علنًا، وصراحةً، وعلى رؤوس الأشهاد، وأمام الناس، ولما كان النفاق توجيهًا للشعور على مستويين كان شركًا،... الشرك أيضًا: هو طاعة البشر الذين استحوذوا على قوى غير شرعية؛ للتسلط على رقاب الناس، والحكم في مصائرهم، والتوحيد: تخليص الشعور العاقل وتحرير له من كل ما يشده إلى غير الفعل الحر؛ فيصبح التوحيد إعلانًا لاستقلال العقل، وحرية الإرادة.(١)

[أ/٢٨] وعلى ساحة التصوف يرى أن شيوخه المعاصرين خارج الواقع؛ فيهدي إليهم الجزء الأول (من الفناء إلى البقاء) «كي يعودوا إلى العالم من جديد»(٢)؛ نعم؛ فعلوم التصوف: أبعد العلوم عن اللحظة الراهنة، بعد علمي أصول الدين، والحكمة (الفلسفة)، مع أن التصوف أكثرها اقترابًا من تحليل التجارب الشعورية.(٣)

[أ/٢٩] والتحول من الفناء إلى البقاء؛ أي من علوم الأقدمين، إلى رؤية المحدثين: رؤية سابقة لإقبال(٤)، وغيره من الغربيين؛ حيث استعملوا (الآلة الجديدة) لدى بيكون، و(العلوم الجديدة) لدى نيوتن وفيكو، وكذا فعل هوسرل: (من المنطق الصوري إلى المنطق الترنسندنتالي)، وهو لا يبعد أيضًا عن موقف الحركة السلفية عند ابن تيمية؛ الذي يجعل البقاء هو نهاية المقامات، وليس الفناء.(٥)

[أ/٣٠] وعلوم التصوف تجمع تحته: علم الأخلاق، وعلم النفس، والفلسفة؛ معتمدًا على الفقه، والحديث، والتفسير، والسيرة، خاصة في التصوف العملي(٦)، وينقم حنفي على الغزالي؛ مراتٍ، مرة حين جعل التصوف إيديوجيا الطاعة للناس، ومرة حين جعل الكلام إيديولوجيا القوة للسلطان؛ ممثلاً حلقة الوصل بين المرحلتين؛ الخلقية قبلاً، والنفسية بعدًا؛ تمامًا كما مثل ابن عربي حلقة الوصل بين مرحلتين؛ المرحلة النفسية قبلاً، والمرحلة الفلسفية بعدًا. (٧)، وعلى

(١) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة، الإنسان الكامل (التوحيد)، ج٢، ص٦١١، ٦١٢.
(٢) حسن حنفي، من الفناء إلى البقاء.. م. س، ج١، ص٥.
(٣) من الفناء إلى البقاء.. م. س، ج١، ص١٤.
(٤) يُنظر: حسن حنفي، إقبال.. فيلسوف الذاتية، دار المدار، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.
(٥) يُنظر: من الفناء إلى البقاء.. م. س، ج١، ص١٥.
(٦) يُنظر: من الفناء إلى البقاء.. م. س، ج١، ص١٥.
(٧) يُنظر: من الفناء إلى البقاء.. م. س، ج١، ص١٦.

هذا يرى حنفي أن أهم كتابين نظريين في التصوف هما: (إحياء علوم الدين)، و(الفتوحات المكية).

[أ/٣١] ثم جاء التصوف الجماعي الطرقي في المرحلة العثمانية، ودام سبعة قرون من الزمان، وما زال مستمرًّا، وآن الأوان لإنهاء التصوف الطرقي؛ من خلال الإصلاح الديني المعاصر، لبدء المرحلة الثورية التي بدأن بالأفغاني ومحمد عبده، والمرحلة الثورية لها جذورها في التاريخ الإسلامي؛ الحلاج في ثورة القرامطة، ونجم الدين كبري في حروبه ضد التتار، والثورة المهدية في السودان، والسنوسية في ليبيا، ومحمد إقبال في شبه القارة الهندية، ضد المحتل الخارجي، والتخلف الداخلي، والبقاء: بعرض التصوف كطريق؛ كفهم عملي مستقل عن التاريخ، طريق صاعد من أسفل إلى أعلى، من الإنسان إلى الله، يبدأ بالتوبة، وينتهي بالفناء، وبين البداية والنهاية المقامات والأحوال؛ بواسطة الرياضات والمجاهدات، من الداخل إلى الخارج، ثم من الخارج إلى الداخل، من العالم إلى النفس، ثم من النفس إلى الله، من أفعال الجوارح إلى أفعال القلوب، ومن أفعال القلوب إلى الأفعال الإلهية.(١)

[أ/٣٢] ويمكننا أن نُبقي على التصوف بتداخل المراحل؛ الخلقي مع النفسي؛ الفضائل مع المقامات والأحوال، صدًا وورعًا وإخلاصًا... فنكون قد فضلنا البنية على التاريخ، ونبدأ في تفعيل التحولات الكبرى: من الشريعة إلى الأخلاق، ومن الظاهر إلى الباطن، ومن الأوامر والنواهي إلى الفضائل والرذائل؛ رياضة ومجاهدة وتوحيدَ شهودٍ، ويكون التحويل المرجو في علوم التصوف، في القلب: سلامةً، وفي الضمير: نقاءً، ولبذخ الدنيا: مقاومةً إيجابية؛ دفاعًا عن الثقافة والأرض والعرض والمصير المشترك.

[أ/٣٣] والإبقاء على التصوف يكون بإدراك سماته: العملية، والمنهجية؛ كأصول الفقه، والذوقية؛ بعكس علوم الحكمة، والباطنية؛ بعكس علوم الشريعة، والحركية؛ كالعالم، والإبداعية؛ بعكس الواقع الجاثم، والإنسانية.

[أ/٣٤] بقاء التصوف يكون بالتخلص الفعلي من الركام الذي هيل عليه؛ من شعوذة، وخِرَق، وخواء، وجهل، وطُرقية، وأشكال، ورسوم؛ كما عبر القشيري صادقًا: «كان للقوم إشارات، ثم صارت حركات، ثم لم تبقَ إلا الحسرات»(٢)

(١) يُنظر: من الفناء إلى البقاء.. م. س، ج١، ص١٧.

(٢) يُنظر: من الفناء إلى البقاء.. م. س، ج١، ص٩٠٨، عن الرسالة القشيرية١٢٧.

[أ/٣٥] يبقى التصوف حيًّا: بعودته؛ ليكون تأسيسًا وجدانيًّا لعلوم الصحوة والنهضة، يبقى بأن يعود لسعته ورحابته، بأن يكون معناه أكبر من اسمه، وفحواه أعظم من رسمه.

[أ/٣٦] وعلى مستوى البحوث العملية الإيمانية، والبحوث السياسية المختصة بالحكم والإمامية يختتم حسن حنفي تصوره للبقاء الإنساني الإسلامي فيما يلي:

يكون البقاء بالانتقال من الفرق الاعتقادية، إلى الوحدة الوطنية، ويكون بترك التكفير النظري والعملي، والتمسك بالحقوق الخاصة بالأفراد والمجتمعات، على المستويين الاقتصادي والاجتماعي، ويكون باستيعاب المخالفين، لا قهرهم.[١]

[ب] الزاوية الثانية: من تجليات فكرية وحيوية لمفهوم البقاء في التراث والتجديد

في محور (من النص إلى الواقع) في (التراث والتجديد): يرد حنفي على شبهة أن التشريعات الإسلامية حرفية فقهية، تضحي بالمصالح العامة، قاسية؛ لا تعرف إلا الرجم والقتل والجلد والتعذيب وقطع الأيدي، والصلب والتعليق على جذوع النخل، وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، وتكليف بما لا يطاق؛ كما أن من مآسينا خروج بعض الحركات الإسلامية المعاصرة من النص الحرفي، وتطبيق شعاراته حول الحاكمية لله، وتطبيق الشريعة الإسلاميةن والبديل الإسلامي، دون مراعاة لواقع متجدد، أو لتدرج في التغير.

وهذا بمثابة التمهيد لقناعته أن التلقي جزء من الخطاب، وقد كُتب للفقيه؛ من أجل أن يحسن الاستدلال، ويغلب المصلحة العامة، وهي أساس التشريع، على حرفية النص، وإعطاء الأولوية للواقع على النص.

وهذه بعض التجليات الفكرية، والحيوية؛ لمفهوم البقاء في (التراث والتجديد):

[ب/١] يقول عن محور (من النقل إلى الإبداع) إنه كتب لكل من يريد الحكم على الذات العربي الإسلامي، وقدره بين النقل والأبداع، وفي أية مرحلة، وفي أي علم، وفي أي نص؛ من أجل تقييد إطلاق الأحكام، أما الحكم بالنقل على الإطلاق؛ لا كما يفعل المستشرقون، أو ابلإبداع على الإطلاق؛ كما يفعل بعض الباحين العرب الغيورين على التراث ودوره الحضاري.

---

(١) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة، الإيمان والعمل (الإمامة)، ن. مكتبة مدبولي، ١٩٨٨م، ج٥، من ص٣٩٣: ص٥٣٦.

وفي المجلدات الثلاثة التي تضمنها: «من النقل إلى الأبداع»؛ النقل/التحول/الإبداع: تستبين معالم «البقاء» في محاولة حنفي لإعادة بناء علوم الحكمة «الفلسفة» على النحو التالي:

[ب/٢] البقاء عند حسن حنفي ليس مجرد مفهوم مخالف للفناء، بل هو بقاء يؤسس على ما كان؛ من غير تقليد، لذلك فهو يستلهم روح التراث، ولا يتقيد لا بمنهجه، ولا بأدواته؛ فضلاً عن حرفيته وآلاته.

[ب/٣] وهو البقاء الذي لا يقيم قطيعة مع الماضي، ولا يستنكف أن يمد عينيه إلى كثير مما مر بالحضارات الإنسانية؛ استخلاصًا لعبرة، أو إجراء لقياس، أو ترجمة لمعلومة نافعة، أو استلهامًا لتجارب جماعية أو فردية ذات أثر، أو استنفارًا لبني الدين والوطن والعرق؛ لينهضوا؛ لذلك اشتمل مشروع حسن حنفي على ترجمات ودراسات وإبداعات خارج حدود العروبة والإسلام.

[ب/٤] البقاء عند حسن حنفي يكون باستيعاب النزعة العلمية؛ تاريخية، تحليلية، إسقاطية، أثر وتأثر، جنبًا إلى جنب مع النزعة الخطابية، ثم الانتقال إلى منطق التجديد اللغوي؛ حيث تدارك قصور اللغة التقليدية، وإدراك مميزات اللغة الجديدة، والتفريق بين زواية المثلث: اللفظ/المعنى/الشيء.

[ب/٥] ويكون البقاء المنهجي كذلكم باكتشاف مستويات حديثة للتحليل الشعوري، مع وضع تغير البيئة الثقافية في الحسبان.

[ب/ ٦] والبقاء في مشروع حنفي لا يكون بالاستسلام للواقع الظالم، بل بمقاومته؛ لذلك يبدع عن «فشته»؛ فيلسوف المقاومة، ويهدي إبداعاته إلى المقاومة الفلسطينية حينًا، وإلى ثورات الربيع العربي حينًا آخر، ويقرر عن «فيلسوف المقاومة» تأخر عن موعده في المشروع طويلاً، تأخر عشرين عامًا بأكلمها، في تقدير صاحب المشروع، ومع ذلك: لا تزال الأرض محتلة، ولم نستطع تحقيق شعار: «إزالة العدوان»، بعد هزيمة ٦٧، وتخلفنا عن تحرير كامل الأرض الفلسطينية، من البحر إلى النهر، والحل عنده هو البقاء؛ متمثلاً في مزيد من المقاومة: (الأنا تضع نفسها حين تقاوم، لو آمنتُ بمثل أعلى، ثم اتضح لي بعد ذلك أنه غير موجود، فليس خطأي أنني آمنتُ به، بل خطؤه هو؛ أنه غير موجود!)

[ب/٧] والبقاء عند حسن حنفي: أن تُعطى الأولوية للمصالح العامة، على حساب

النصوص والحروف، حيث لا يمكن الاكتفاء بالإنشائيات؛ من العقيدة إلى الثورة، ولا يمكن الوقوف عند التحليلات الكمية؛ من النقل إلى الإبداع، ولكن البقاء يكون بالولوج إلى أساليب التحليل والبرهان.

[ب/٨] يكون البقاء بإعادة قراءة العقيدة؛ بحسبانها دافعًا إلى التقدم والنهضة، بعد اتهامها أنها سبب مباشر للتراجع والتخلف.

[ب/٩] وذروة البقاء ليس في رفض الغرب، بل بتحويله؛ ليكون موضوعًا للعلم، والتخلص من آثار كونه مصدرًا للعلم.

[ب/١٠] والبقاء من داخل المنهاج الإسلامي ممكن؛ بشرط حُسن تصوره؛ إذ إنه ذو صورتين؛ صورة ثابتة، وصورة حركية، وللثابتة جانبان؛ التصور (العقيدة)، والنظام (الشريعة)، وللصورة الحركية جانبان كذلكم؛ الطاقة (الإيمان)، والحركة (الجهاد).

[ب/١١] وقد يكون البقاء في معالجة قضايا تراثية قديمة بمنهج تجديد حديث؛ كما فعل حنفي في رسالته للدكتوراه.

[ب/١٢] ثم إن البقاء في (التراث والتجديد) بقاء بالكل؛ بالشباب الثائر المثقف، وبالعامل الكادح الصنّاع، وبالمعلم القدوة المربي، وبالأستاذ الحكيم المرشد، وبالواعظ اللطيف المستنير، وبالعالم المفكر، وبالثري الاشتراكي، وبالفلاح المنتج المنتزع حقه بالإنتاج، وبالزاهد المليء المتعفف، وبالسياسي الجماهيري الوطني.

[ب/١٣] ورحابة «مفهوم البقاء» عند حنفي؛ مساحةً شملت الكون كله، وكثافة فضمتْ جميع البشر، ودوائرَ فوسعت جميع الأغيار، والفرقاء، بل المتخاصمين والمتقاتلين.

[ب/١٤] لذلك جعل البقاء الأولوية للإنسان الكامل، بعد التسليم بالإله الواحد، وبتطبيق العدل، وليس الاكتفاء بوجوب العدل، والانتقال من حقوق الحاكم والإقطاعي المعاصر إلى حقوق الإنسان؛ المواطن العادي؛ فضلاً عن المعوز الكادح، والعفيف العاجز؛ لتكون بوصلة الإنسانية دائمًا إلى الأمام.

[ب/١٥] والبقاء عند حنفي -في التراث والتجديد- بقاءٌ شامل كامل، جامع مانع؛ بالروح والجسد، وبالعدل والحرية، وبالتزكي والعفاف، وبالرأسمالي الوطني مع العامل الشامخ، وبمنبر

الجامعة مع منبر المسجد، وبالضباط الأحرار، وقبلهم بالمفكرين الأحرار، وقبل الجميع: بالمواطنين الأحرار، في وطن حر.

[ب/١٦] ويكون البقاء بنباهة المفكر -رغم كل أعبائه الكبرى- بالحوادث الجزئية، التي ربما لا يلفت إليها أحد، كلنها تمثل لديه إشارة إنذار، أو علامة تحول، أو دليل تغير قادم؛ لذلك كان حنفي متمثلاً مشروعه في سلوكه، وفي أولوياته، فمقالاته الحية ترصد الحوادث الجزيئة، ووساطاته بين الدول تخدم مصلحة أمته، ورفضه لجميع المناصب الإدارية داخل الجامعة وخارجها: تكرس تفرغه لعقله، وورقته، وقلمه، وتلامذته، ومحبيه، ومريديه، ومؤيديه، ومعارضيه، ومشاغبيه، بقدر فرار من الأعلام ذي الضجيج ولا طحين، إلا السموم الناقعات.

[ب/١٧] وبقاء الأمة عند حنفي يكون بالتوافق لا التناحر، وبالتمايز لا بالتماهي، وباحترام التغاير، لا بافتعال الاختلاف، وبالحرص على النجاة للجميع، لا بالاستئثار بالنجاة، والحكم على الأغيار بالهلاك، فالسياسة هي التي وظفت حديث الفرقة الناجية، وليس الدين!

[ب/١٨] البقاء عند حنفي باليقين عمليٌّ، وليس باليقين التاريخي، فلندعْ الحكم من منظور تاريخي؛ المتكلمون أهل أهواء، والمعتزلة مجوس، والثوار خوارج، والشيعة رافضة، وأهل الحديث نواصب، ومن ثمَّ الإسقاط على الواقع: فالمعارضة خونة وعملاء، والمجتهدون ملحدون مارقون، والسلطة هي الجماعة، والخارج عليها ليس خارجًا على القانون، بل خارج عن الدين، وبهذا نكون قد أرحنا أعداءنا، وأفنينا أنفسنا بأنفسنا!

[ب/١٩] البقاء يكون بحل عقد التنازع الحاضر، فليس هو تنازعًا فكريًّا، هذه خدعة، بل هو تنازع على كراسي السلطة، على مساحة الأرض المحكومة، وكثافة البشر المحكومين، وتضخم الموارد تحت الأرض وفوقها، وبدلاً من أن يكون بالحق وللحق: تنقلب الآية؛ فيسمى الاعوجاج استقامة، والشذوذ اجتهادًا، والبدعة إبداعًا، والتفريد اجتماعًا!

[ب/٢٠] البقاء يكون بتكريس النجاة للجميع، لا بقصره على فئة وحيدة ناجية، ونحن لا ندري أهي ناجية في الدنيا أو في الآخرة، ناجية عند الله أو عند السلطان؟!

[ب/٢١] والبقاء يكون بكسر نصل التكفير السياسي؛ المتخفي تحت عباءة الدين، يقذف به الحاكم وجوه المعارضة المقلقة، فلا يكتفي أن يتخذهم خصومًا سياسيين، بل يوعز للجماهير أن تتخذهم خصومًا في الدين المقدس، ويلقي بهم في السجون، بدلاً من أن يضمهم في أهل الشورى!

[ب/٢٢] كما يكون البقاء بعدالة السلطة: يكون كذلك بنزاهة المعارضة، فلا تخوِّن السلطويين كافة، فيكونوا دائمًا متهمين بالفساد الداخلي، أو العمالة الخارجية؛ لأننا بذلك نكون قد أحكمنا دائرة الفناء الذاتي، والإفناء الغيري، على أنفسنا وأمتنا، بدلاً من البقاء على مع الذات، والأبقاء على الآخر، والحل عند حنفي في العودة إلى التجارب الإنسانية، بالاتفاق على حد أدنى من المواقف السياسية والاجتماعية؛ لتنتهي ظواهر الفناء، والإفناء، وتعلو ثقافة البقاء، والإبقاء!

[ب/٢٣] وفي سبيل البقاء الإنساني العادل الفعال لا يألو حنفي جهدًا في تحفيز الجميع -ممن يؤثرون الفناء والإفناء- على أن ينضكوا إليه في مقاومة الاغتراب الديني، والاغتراب السياسي، وأن يكون البقاء بالهوية، مع الاعتراف بالآخر، بل بالتعاون والتشارك مع الآخر؛ على أسس الحرية المسؤولة، والعدالة المطلقة.

[ب/٢٤] وفي معركة اليمين واليسار يبقى حنفي متوازن الفكر رابط الجأش، لا يعتمد التحليلات الإحصائية، بل التجارب الحية، ووصف الخبرات الشعورية المشتركة، مستثمرًا قدرته الفائقة على الاستنباط، والاستبطان.

[ب/٢٥] ويرى أن البقاء يكون بالنأي عن معركة البناء الفوقي والتحتي، أيهما علة وأيهما معلول؛ لأنها معركة فناء بالية، فهي أكلاديمة صرفة، والحياة تكون بوصف الظواهر الفكرية؛ فبقدر ما تكون الأفكار تعبيرًا عن الواقع: بقدر يكون الواقع موجهًا للأفكار، وربما يتكون هذه العبارة جوهر مشروع التراث والتجديد بأكمله.

[ب/٢٦] ولضمان البقاء لابد أن يعمل الجميع؛ لصالح الجميع؛ فينزل المفكر إلى القاعدة العريضة بفكره، ينزل إلى رجل الشارع المهموم برغيف العيش، لينهض به في مجلداته الضخمة: «الدين والثورة في مصر»، ويفهمه أن أمن البطون وأمن النفوس يكون في تأمين الفكر؛ بالثقافة الوطنية، والتحرر الثقافي، بالإبداع الذاتي للفكر، وبالجمع بين الأصالة والمعاصرة، وعدم رفض التنوير الذي يناسبنا، وبتقديم المفكرين الأحرار على الضباط الأحرار، وفي كل خير، بمعالجة الأديب الفيلسوف أزمات الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية، موضحًا أولوية الواقع على النظرية، مع البقاء الشرس في أتون معركة التحرر الثقافي، مرسخًا علاقة الدين بالنضال الوطني، بادئًا بالجذور التاريخية للغزو الصهيوني للتراث الإسلامي؛

ليتحرك في محور الدين والتنمية القومية، مرورًا بالحركات الدينية المعاصرة، مع كونها شائكة للغاية، بل رقعة ملغمة، ولكن لابد مما ليس منه بد، مرجحًا أن اليسار الإسلامي؛ أي: الوقوف بجانب المعراضة الوطنية للسلطة المستبدة أو الجائرة: هو السبيل الأصوب والأنجع إن لم يكن الأوحد.

[ب/٢٧] والبقاء السياسي عند حنفي يكون بإيثار الحرية على لقة الخبز، والشورى على أبهة السلطة، وبالحكم المدني على الكهنوت المقدس، والقوة الغشوم، والاستبداد الجبري، والانقلاب العسكري.

[ب/٢٨] والبقاء الفكري عند حسن حنفي يكون بدحض شبهة أن علماء المسلمين كانوا نقلة عن اليونان، مترجمين لعلومهم، شارحين لمؤلفاتهم، وملخصين وعارضين لها، وأن الفلسفة يونانية، والتصوف مسيحي أو فارسي أو هندي أو يوناني؛ أفلاطون أو أرسطو أو النحلة الأورقية، وأن علم الكلامي نصراني، أو يهودي، وأن أصول الفقه يوناني في القياس، وكأن المسلمين لم يبدعوا شيئًا، وأنهم مجرد حفظة ونقلة، يسيئون النقل، ويخلطون بين أرسطو وأفوطين، وبين أفلاطون وأرسطو، وينتحلون نصوصًا على لسان الفلاسفة!

[ب/٢٩] والبقاء الفكري مع التسليم بأنَّ ثم وجودًا لمقاييس للصدق، وأنماط مثالية للفكر، غير أن المعطيات المسبقة إنما تنبع من طبيعة العقل، ويدركها الشعور بحدسه، ولا يمكن التسليم بشيء على أنه حق ما لم يُعرضْ على العقل، ويثبت في الواقع أن كذلك.(١)

[ب/٣٠] والبقاء الإنساني عند حسن حنفي -في محور أصول الدين- يكون بكمال إنسانيته في أصل التوحيد، وبتعين إنسانيته في أصل الوحي، وبتمام حريته وعقله في أصل العدل، ومن هنا ينقم حسن حنفي على مصنفات أصول الدين أهمالها للإنسان، بل تغييبه، والتعامل معه كشيء، لا كإنسان حاضر في الطبيعة بثنائيته متزنة بين النفس والبدن، بلا فصل بينهما، ولا تمايز، بل إن النتيجة النهائية -في تقدير حسن حنفي- للعقليات في علم أصول الدين: هي الإنسان؛ ذاته، وصفاته، وأفعاله.(٢)

[ب/٣١] كما ينادي حسن حنفي بالإبقاء على الأمة، من خلال التحذير من الانتقال من

(١) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، م. س، ج١، ص١٠.
(٢) يُنظر: من العقيدة إلى الثورة، الإنسان المتعين (العدل)، ج٣، من ص٥٣٢: ص٥٤٠.

الوحدة إلى التفرق، سواء كان التفرق جغرافيًّا، أو عرقيًّا، أو قوميًّا، أو حضاريًّا، أو مذهبيًّا، على المستويات الثلاثة؛ البنائي المذهبي، والجدلي التاريخي، والاجتماعي السياسي.(١)

[ب/٣٢] يكون البقاء بالتراث والتجديد معًا، وليس بأحدهما على حساب الآخر، لابد من التراث، فهو نقطة البداء؛ به نحافظ على الثقافة الوطنية، ونؤصل للحاضر، وندفع نحو التقدم، ونشارك في قضايا التغيير الاجتماعي، والتجديد هو إعادة تفسير التراث؛ طبقًا لحاجات العصر، فالقديم يسبق الجديد، والأصالة أساس المعاصرة، والوسيلة تؤدي إلى الغاية، التراث هو الوسيلة، والتجديد هو الغاية، والغاية: هي المساعمة في تطوير الواقع، وحل مشكلاته، والقضاء على أسباب معوقاته، وفتح مغاليقه التي تمنع أية محاولة لتطويره، والتراث ليس قيمة في حد ذاته، إلا بقدر ما يعطي من نظرية علمية، في تفسير الواقع، والعمل على تطويره، فهو ليس متحفًا للأفكار، نفخر بها، وننظر إليها بإعجاب، ونقف أمامها في انبهار. .. .، بل هو نظرية للعمل، وموجه للسلوك، وذخيرة قومية يمكن اكتشافها واستغلالها واستثمارها؛ من أجل إعادة بناء الإنسان، وعلاقته بالأرض، وهما حجرا العثرة اللذان تتحطم عليهما كل جهود البلاد النامية، في التطور والتنمية، فالتصنيع، والإصلاح الزراعي قد يتحطمان؛ لأن الإنسان وهو العامل والفلاح، لم تتم إعادة بنائه ووضعه في العالم، وظل متخلفًا عن مظاهر التقدم، فالثورة الزراعية والصناعية في البلاد النامية لا تتم إلا بعد القيام بثورة إنسانية؛ سابقة عليها، وشرط لها. .. فالنهضة سابقة على التنمية وشرط لها، والإصلاح سابق على النهضة وشرط لها، والقفز إلى التنمية هو تحقيق لمظاهر التقدم، دون مضمونه وشرطه، التراث والتجديد إذن يحاول تأسيس قضايا التغير الاجتماعي، على نحو طبيعي، وفي منظور تاريخي، يبدأ بالأساس والشرط، قبل المؤسس والمشروط.(٢)

[ب/٣٣] ويرى حنفي أن (بقاءنا) لا يكون بالاكتفاء بالتراث، ولا يمكن أن يكون بالاكتفاء بالجديد، بل بالتوفيق بينهما؛ نأخذ من القديم ما يتفق مع العصر، ونُرجع الجديد لمقاييس القديم، فهو موقف شرعي من الناحية النظرية، يود أن يستوعب مزايا كلا الموقفين، السابقين، وأن يتخلى عن عيوبهما، ولن يكون ذلك بالتجديد من الخارج فقط؛

---

(١) يُنظر: حسن حنفي، حديث الفرقة الناجية بين تعدد الروايات والتوظيف السياسي في علم أصول الدين، مؤتمر لوحدة الإسلامية وديعة محمد ﷺ، المنامة، البحرين ديسمبر ٢٠٠٧م.

(٢) يُنظر: التراث والتجديد، م. س، ص١٣، ١٤.

بمعنى اتخاذ مذهب أوربي غربي أو معاصر، ثم قياس التراث عليه، فتتكون عندنا نماذج شائهة؛ كالأرسطية الليبرالية، والمادية الاشتراكية، والديكارتية الإصلاحية، والكانطية الأخلاقية، والماركسية الغربية، والشخصانية الإسلامية، والوضعية الأصولية، ولن يكون أيضًا بالتجديد من الداخل فقط؛ لأنها محاولات جزئية ليستْ كافية، والحق أن المحافظ لها حق التقدمي بالضبط في الانتقاء التراثي، غير أن العبرة بالفعل، وليس بالنية، ولا بالخطابة؛ لأن الواقع لا يستنبط من الفكر، ولا الفكر يأتي من الواقع المسطح الجزئي، بل قد يأتي من الوقاع العريض، وذلك راجع إلى واقعة الوحي، وهو مصدر التراث، وكيف أنه جاء تلبية لنداء الواقع، وتكيف أساسه[١]

[ب/٣٤] وعليه: يصل حسن حنفي إلى مبتغاه في الإرشاد إلى وسيلة (بقاء الأمة)؛ بالجمع بين الأصالة والمعاصرة؛ بين القديم والجديد، بين التراث والواقع؛ إن في أزمات التغير الاجتماعي[٢]، أو أزمات المناهج في الدراسات الإسلامية[٣]، أو طرق التجديد[٤]، أو إعادة بناء العلوم؛ الإنسانية، والحضارية، والأصولية، والصوفية، والنقلية، والرياضية، والطبيعية، والتاريخية[٥]، دون قطع العلائق مع التراث الغربي؛ إذ لنا منه موقفُنا[٦]، ودون ترك المشروع معلقًا في الفضاء، بل لابد من تنزيله على الواقع؛ بواسطة إسقاط نظرية التفسير عليه.[٧]

[ب/٣٥] وفي كتيبه عن (الهُوِيَّة)، والذي يهديه إلى شهداء الربيع العربي[٨]: يقرر أن «الهوية خاصة بالإنسان والمجتمع، الفرد والجماعة، هي موضوع إنساني خالص، فالإنسان هو الذي ينقسم على نفسه، وهو الذي يشعر بالمفارقة أو التعالي، أو القسمة بين ما هو كائن، وما ينبغي أن يكون، بين الواقع والمثال، بين الحاضر والماضي، بين الحاضر والمستقبل، هو الذي يشعر بالفصام، وهو الذي تنقلب فيه الهوية إلى اغتراب، الإنسان وحده هو الذي يمكن أن

(١) يُنظر: التراث والتجديد، م. س، ص٣١: ٣٤.
(٢) يُنظر: التراث والتجديد، م. س، من ص٣٥: ص٦٦.
(٣) يُنظر: التراث والتجديد، م. س، من ص٦٧: ص١٠٨.
(٤) يُنظر: التراث والتجديد، م. س، من ص١٠٩: ص١٤٦.
(٥) يُنظر: التراث والتجديد، م. س، من ص١٤٧: إلى ص١٧٥.
(٦) يُنظر: التراث والتجديد، م. س، من ص ١٧٦: ص١٨٠: ص١٨٣..
(٧) يُنظر: التراث والتجديد، م. س، من ص١٨٠: ص١٨٣: ص١٨٦.
(٨) يُنظر: الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠١٢م، ص٥.

يكون علي غير ما هو عليه، فالهوية تعبير عن الحرية؛ الحرية الذاتية، الهوية إمكانية؛ قد توجد، وقد لا توجد، إن وجدت فالوجود الذاتي، وإن غابت فالاغتراب»[١].

[ب/٣٦] إذن فبقاؤنا لدى حسن حنفي مرهون بمدى تمسكنا بهويتنا، ضد الاغتراب؛ إن في الدين[٢]، أو في السياسة[٣]، فالهوية التاريخية -إسلامية وعربية- تتحرك الآن، ونحنُ في قلبها؛ تطير عائدةً من جديد من الغرب إلى الشرق.[٤]

[ب/٣٧] ويشعر حسن حنفي بوطئة الزمن، بثقله على نفسه وعقله وجسده، بحصاره له، ولكل من حوله، فينفث زفرته في «حصار الزمن»؛ حتى لا يهزمَ هذا الحصارُ «البقاء» الأبدي في تصور حسن حنفي، وشعوره، فيهدي الجزء الأول من الحصار إلى المواطن العربي؛ حتى يفك حصار الزمن![٥]

[ب/٣٨] وفي حصار الزمن (الإشكاليات) يتناول حنفي الإشكالات النظرية، ويدلف منها إلى أزمة الإبداع المصرية العربية؛ واضعًا سؤاله الأكبر: هل تستطيع الفلسفة أن تنزع جذور القهر والتسلط من الوجدان العربي المعاصر؟[٦]، وتبين إيمان حنفي بمبادئه؛ حين يجيب بالإثبات: «تستطيع الفلسفة أن تساهم في انتزاع جذور التسلط والقهر من الوجدان العربي المعاصر؛ عن طريق إعادة بناء الثقافة الوطنية، وخلخلتها من جذورها الأحادية الطرف، وإيحاء جذور أخرى أكثر قدرة على إثبات حرية الفرد وديموقراطية الحكم، وهو عمل تاريخي طويل، يقتضي حصاد ألف عام، من جذور التسلط والقهر، والبداية بنهضة عربية ثانية، غير النهضة الأولى التي بدأت في القرن الماضي، تتعلم من تجربتها في الحداثة، وتغوص في عمق الوعي التاريخي؛ لتوسس الوعي السياسي الجديد، وهو ليس عملاً نخبويًّا، بقدر ما هو ثورة ثقافية عامة؛ في العليم، والإعلام، اللذين ما زالا خاضعين للنظم العسكرية والملكية، ولما كانت دورة التاريخ لا تتوقف: فليجري المثقفون الوطنيون حظهم في نهضة عربية ثانية، في

(١) يُنظر: الهوية، م. س، ص١١.
(٢) يُنظر: الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠١٢م، ص٣٩، وما بعدها.
(٣) يُنظر: الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠١٢م، ص٥١، وما بعدها.
(٤) يُنظر: الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠١٢م، ص٧٥.
(٥) يُنظر: حسن حنفي؛ حصار الزمن (الحاضر.. إشكالات)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط. ١، ٢٠٠٤م، ص٤.
(٦) يُنظر: حسن حنفي؛ حصار الزمن (الحاضر.. إشكالات)، م. س، ص١٩١، وما بعدها.

القرن القادم[١]، بعد أن جرب المفكرون الأحرار حظهم في النهضة العربية الأولى في القرن الماضي، وجرب الضباط الأحرار حظهم في القرن الحالي.[٢]

[ب/٣٩] وفي إشكال «التنوير» يسلك حنفي السبيل المزدوج؛ بالجمع بين (تراث السلف)، ونهضة «الغرب العلماني»، بضم الوعي الفكري إلى الوعي السياسي، وتأسيس الأخير على الوعي التاريخي؛ فلا يعود من حق الغرب أن يزهو علينا بأنه صانع حضارة تقوم على بعدين؛ الإنسان، والتاريخ، بل تشارك حضارات البشر جميعًا، في حوار حضاري عام، متكافيء الأطراف.[٣]

[ب/٤٠] وبعد دراسة مقومات الوفاق العربي: يرى حنفي إمكانية أن يقوم الموروث العربي في تحقيق الوفاق العربي، بشرط الانتقال من الأحادية إلى التعددية، وأن يصبح الإيجاب هو الأساس، وليس السلب؛ لأن الوعي الثقافي تراكم تاريخي، والوعي السياسي في الشعوب التراثية وعي ثقافي، ومن ثَمَّ كانت إعادة بناء الموروث الثقافي داخل الوعي التاريخي: هي المدخل المستدام للوفاق العربي.[٤]

[ب/٤١] ويرى حنفي أن بقاءنا رهين بمدى استيعابنا لفلسفة الجمال؛ فنًّا، وأمثالاً؛ فالفن في منطلقة فكر، والفكر في تحققه فن، للفن مكوناته الثقافية؛ الموروثة، أو الوافدة، والتي تؤثر في وجدان الفنان... بصرف النظر عن جمهور متلقي الفن.[٥]

[ب/٤٢] ويطرح حنفي السؤال الحائر: ومع ذلك يظل السؤال قائمًا: الفنون البصرية والفنون السمعية، أيهما أبقى في الذوق العربي؟[٦]

[ب/٤٣] ويتحقق البقاء حينما لا نضحي بالرائي في سبيل المرئي؛ كما فعلت الوضعية، ولا بالمرئي في سبيل الرائي؛ كما فعلت المثالية، فالصورة تجمع ولا تفرق، تضم ولا تشعب، تربط ولا تفك؛ حتى يستطيع الإنسان أن يعيش في عالم واحد قادر على التعامل معه، بدلاً أن يعيش في عالمين.[٧]

---

(١) يقصد القرن الحالي؛ الحادي والعشرين الميلادي؛ بقرينة الجملة بعدها.
(٢) يُنظر: حسن حنفي؛ حصار الزمن (الحاضر.. إشكالات)، م. س، ص٢٠٦.
(٣) يُنظر: حسن حنفي؛ حصار الزمن (الحاضر.. إشكالات)، م. س، ص٢٢٧.
(٤) يُنظر: حسن حنفي؛ حصار الزمن (الحاضر.. إشكالات)، م. س، ص٢٦٢.
(٥) يُنظر: حسن حنفي؛ حصار الزمن (الحاضر.. إشكالات)، م. س، ص٢٦٥.
(٦) يُنظر: حسن حنفي؛ حصار الزمن (الحاضر.. إشكالات)، م. س، ص٢٧٠.
(٧) يُنظر: حسن حنفي؛ حصار الزمن (الحاضر.. إشكالات)، م. س، ص٢٨٠.

[ب/٤٤] ومن وسائل البقاء: استيعاب الفلسفة الإسلامية للثقافة الشعبية، التي تربط بين الماضي والحاضر، وبين القدماء والمحدثين؛ بغاية بناء الإنسان، وبقائه.(١)

[ب/٤٥] وللمرأة، ومكانتها في ثقافتنا: دور في البقاء؛ فبعد استعراض لطيف لتصور العقل العربي للمرأة؛ مجتزءًا من الأمثال الشعبية؛ المرأة: الأنثى، والزوجة، والضرة أو الخليلة، والأم، والبنت أو الأخت، والحمة، أو امرأة الأب، أو زوج الأم، والقريبة أو الجارة، والعاملة: يقرر حنفي أن تصورنا للمرأة ما زال يقف عائقًا لحركات التغير الاجتماعي.(٢)

[ب/٤٦] وفي زواية أخرى من «حصار الزمن.. إشكالات الحاضر»: يقدم حنفي رؤيته للدين؛ الذي يكرس «للبقاء الإنساني»؛ إنه وسيلة للتغير الاجتماعي والسياسي والثقافي، حرجة اجتماعية تعبر عن قوى اجتماعية مضطهدة أو مهمشة في المجتمع، ضد قوى التسلط والطغيان، وهو كذلك: أداة لتحرير الشعوب بأكلمها، ووسيلة لتجميع الشعوب المتفرقة المتناحرة، وتأليف القلوب؛ فوحدة الأمة: انعكاس لوحدة الألوهية، وهو وسيلة لتوحيد الأوطان، وتوحيد الثقافات، والتحرر الثقافي، ويؤكد حنفي هنا رفضه القاطع عزل السياسة عن الدين، أو الدين عن السياسة، بقدر رفضه لاحتكار الدين، أو احتكار السياسة؛ فضلاً عن احتكارهما معًا؛ لصالح أية جهة، مهما كانت؛ مؤكدًا أن كل العلوم الإسلامية نشأت نشأة سياسية اجتماعية؛ فتحولت فيها القبيلة إلى دولة، والنبوة إلى خلافة، والخلافة إلى مُلك.(٣)

[ب/٤٧] ويقدم حنفي للصراع بين الشرعية الدينية والشرعية السياسية: بتحكيم الشرعية التاريخية، وفك حصار الزمن عن الوعي القومي، بين الانجذاب إلى الماضي؛ كما هو الحال عند السلفيين، والانبهار بالمستقبل؛ كما هو الحال عند العلمانيين، والانسداد في الحاضر؛ كما هو الحال عند سواد الأمة، والتي لا تجد حلاً إلا بالنزول تحت الأرض؛ لاكتساب الشرعية الدينية، أو الصعود إلى مراكز الحكم؛ لاكتساب الشرعية السياسية، أو الهجرة إلى خارج الأوطان؛ لاستعارة شرعية من الآخر، أو التوقف في المكان، حتى يتوقف القلب؛ لانعدام الحركة: «ولكل أجل كتاب»، للأفراد، «وتلك الأيام نداولها بين الناس» للشعوب!(٤)

---

(١) يُنظر: حسن حنفي؛ حصار الزمن (الحاضر.. إشكالات)، م. س، ص٢٩٤.
(٢) يُنظر: حسن حنفي؛ حصار الزمن (الحاضر.. إشكالات)، م. س، ص٢٩٥، وما بعدها.
(٣) يُنظر: حسن حنفي؛ حصار الزمن (الحاضر.. إشكالات)، م. س، ص٣١٨، ٣١٩.
(٤) يُنظر: حسن حنفي؛ حصار الزمن (الحاضر.. إشكالات)، م. س، ص٣٦٩.

[ب/٤٨] والبقاء يقتضي عند حنفي بالحنين إلى الحاضر، والتطلع إلى المستقبل؛ بدلاً من الحنين إلى الماضي؛ الإسلاميين إلى عصر الخلافة، والليبراليين إلى ثورة١٩١٩، والقوميين إلى العصر الناصري، والماركسيين إلى الأممية التي ورثتها العولمة، فغامت الرؤية، ولم يعد أحدٌ يدري في أية مرحلة من التاريخ نعيش.(١)

[ب/٤٩] وينتقل حنفي نقلة نوعية حين ينقل «حصار الزمن» إلى المفكرين المعاصرين؛ ليأخذ من كل مفكر عناصر جديدة للبقاء؛ من طبائع الكواكبي، إلى تجديد الباقر، وفلسفته التاريخية، إلى الثورة عند الخميني، إلى فعل مالك بن نبي، إلى هامش طه حسين على السيرة، إلى التراث السياسي عند حامد ربيع، إلى لاهوت التحرير عند وليم سيدهم، إلى التمدن عند الطهطاوي، وثقافة شرابي، والأنثروبولجياعند أحمد أبو زيد، ونقد العقل عن الجابري، والتاريخ والتراث عند أومليل، وتكوين الفكر عند شبلي شميل، والقياس الحضاري عند فرح أنطون؛ حيث يختتم هذا التطواف البديع بقوله: «القضية هي في الموقف الحضاري، في القدرة على الإحساس بالتمايز، بين الأنا والآخر، على نقد الآخر قدر الانبهار به، وعلى الثقة بالنفس وأصالتها قدر نقدها؛ حتى لا يكال بمكيالين، والوقوع في الأحكام المطلقة، الخير كله من الغير، والشر كله من النفس.»(٢)

[ب/٥٠] ثم يختتم حنفي مشروعة الجزئي «حصار الزمن» في جزئه الثالث: «الماضي والمستقبل.. علوم» حيث يتناول مفهوم العلم، والروح والجسد في القرآن الكريم، ثم يعرج في الحديث النبوي على نقد المتن، بدلاً من الاكتفاء بنقد السند، ثم يغوص في علم الفقه وأصوله؛ بداية من مكانة الجهاد في التراث، مرورًا بمفاهيم العلم والعمل والتكافل الاجتماعي، وفقه النساء، ومقاصد الشريعة وأهداف الأمة، انتهاءً بالموازنة بين الشورى والبيعة والديمقراطية والعقد الاجتماعي، ثم يؤصل لقضايا علم الفقد الجديد: حقوق الإنسان، والمجتمع المدني، والتنمية، والفقر، والاشتباه، والتحديات الراهنة، ثم يعرج على علوم الحكمة؛ من ملحمة أرسطو، إلى الوحي والعقل والطبيعة، لا إلى الفقه والاشتباه عند ابن رشد، ومكانته بين الأشعرية والظاهرية، وتوظيفه بين الثقافتين؛ العربية والغربية، وصولاً إلى الأنا المتعالية عند ملا صدرا،

(١) يُنظر: حسن حنفي؛ حصار الزمن (الحاضر.. إشكالات)، م. س، ص٦٩٩.

(٢) يُنظر: حسن حنفي؛ حصار الزمن (الحاضر.. مفكرون) مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط. ١، ٢٠٠٤م، ص٥٥٨.

والتيارات السلفية المعاصرة، إلى سؤال منهج؛ مختتمًا هذا التطواف بالثابت أو الباقي: روح العصر، وروح التاريخ؛ أي روح الإنسانية، مع كل نبي، مع كل مذهب... روح التاريخ هو التقدم الذي قد ينكص ثم يعود للتقدم من جديد، وروح الإنسان التي تسري عبر مراحل التاريخ، فالنضال هو روح الإنسانية، والمقاومة أداته، فقد خلق الإنسان لكي يكد في الأرض ويسعى، لتحقيق رسالة التعمير في الأرض؛ فالغائية في الإنسان مثل الغائية في الطبيعة، والغائية في الكون؛ لذلك جعل الفلاسفة مثل كانط الدليل الغائي هو الدليل الوحيد على وجود الله.(١)

[ب/٥١] ومن تجليات البقاء في مشروع حسن حنفي: انفتاحه على نفسه، وعلى الآخرين، فلديه من الشجاعة أن يعيد تقويم بيانات مشروعة الكبير، وحكاية انتقادات الآخرين له؛ بكل رحابة صدر؛ مما يرشح المشروع إلى البقاء أطول فترة من الزمن؛ لكونه يواكب الزمن، ويقبل التصويب، ولا ينغلق على ما كان منه، ويصدر أحد فروع مشروعه بتسعة مآخذ جدية، على الفرع الأسبق مباشرة، وهو أمر نادر.(٢)

خاتمة

قدم الباحث جهده؛ لرصد بعض تجليات (مفهوم البقاء) للبيان الأول (من التراث إلى التجديد.. موقفنا من التراث) بمحاورة الأربعة (علم الكلام/ الفلسفة/ أصول الفقه/ التصوف)، وقد خلصت هذه الورقة البحثية إلى ما يلي:

- أن عشرات التجليات التي رصدتها هذه الورقة البحثية: ما هي إلا رؤوس أقلام؛ تشير من طرفٍ خفي إلى مئات التجليات الأخرى، والتي تحتاج إلى فريق بحث؛ لإتمام رصدها، وإخراجها في مشروع فرعي؛ لنتحول من (التراث والتجديد) إلى: (تفعيل التجديد)؛ وإلا بقي المشروع نظريًّا؛ إنْ في جانبه العقدي، أو محوره الروحي، أو ركنه الفلسفي، أو زاويته الواقعية.
- أن الباحث يرجح أن حسن حنفي مُذْ شرع في تخطيط مشروعه، وكتابته: كان يقصد أن يكون مشروعًا (باقيًا)؛ لا أن يكون مشروعًا عابرًا، فأعلن أن صاحب فكرة البقاء

(١) يُنظر: حسن حنفي؛ حصار الزمن (الماضي والمستقبل.. علوم) مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط. ١، ٢٠٠٦م، ص ٧٤٥.

(٢) يُنظر: حسن حنفي؛ من النقل إلى الإبداع، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٠م، ج١، من ص٧: ص١٤.

لا يفنى، وصاحب دعوات الأمل لا ييأس، وصاحب فكرة التبشير لا يُنَفِّر، وصاحب فكرة الحياة لا يموت، وتكررت هذه المعاني مرارًا في مجلدات مشروعه المتكاثرة.

- أن البقاء في مشروع حسن حنفي: هو عموده الفقري، وفص مخه الأيسر، وصمام قلبه بين القبض والبسط، هو مشروع علمي للحياة الكريمة، ومشروع حياة بالعلم الكريم.

ويختم الباحث ورقته ببعض مؤاخذات دقيقة، وسؤال كبير:

- أن لغة حسن حنفي الشعرية (المجازية) توقع القاريء في كثير من اللبس، بلا داعٍ.
- أن لغة حسن حنفي الثورية تظهره أحيانًا بمظهر المتنكر لثوابت الدين، مع أننا خبرنا الرجل غير ذلك، بل ربما على النقيض من ذلك.
- أن لغة حسن حنفي الفلسفية تجعل قراءة مشروعه أمرًا عسيرًا على جمهور المثقفين، فضلاً عمَّن هو أبسط منهم.
- أن ضخامة المشروع، وتشعبه: يجعل من الواجب على صاحبه أن يقدمه في كتيبات؛ ترصد الخلاصة، وتحيل من يرغب في التوسع على المؤلفات الكاملة، وقد فعل ابن سينا هذا بنفسه، لكن حنفي يعلن أنه يترك هذه المهمة للأجيال المقبلة.

والسؤال الكبير:

هل استطاع حسن حنفي أن يكون مدرسة ثقافية، أو مدرسة فكرية، أو مدرسة أكاديمية؟ أم بقي رصيده مجردَ مئات من التلاميذ، منتشرين في مصر، وبعض البلاد العربية والإسلامية والأوربية فحسب، دون منهاج ينظمهم، أو رابطة تفعِّلُ بقاء فكر الفيلسوف الكبير على الساحة الوطنية والثقافية؟

مصادر الدراسة من مؤلفات حسن حنفي

- التراث والتجديد، المؤسسة الجامعية للدراسات النشر والتوزيع بيروت، ط٤، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

- حديث الفرقة الناجية بين تعدد الروايات والتوظيف السياسي في علم أصول الدين، مؤتمر لوحدة الإسلامية وديعة محمد ﷺ، المنامة، البحرين ديسمبر ٢٠٠٧م.

- حصار الزمن (الحاضر.. إشكالات)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط. ١، ٢٠٠٤م.

- حصار الزمن (الحاضر.. مفكرون) مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط. ١، ٢٠٠٤م.

- حصار الزمن (الماضي والمستقبل.. علوم) مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط. ١، ٢٠٠٦م.

- حوار المشرق والمغرب.. نحو إعادة بناء الفكر القومي العربي، بالاشتراك مع: عابد الجابري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

- في فكرنا المعاصر، دار التنوير، بيروت، ط٢، ١٩٨٣.

- محمد إقبال.. فيلسوف الذاتية، دار المدار، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.

- من العقيدة إلى الثورة، المقدمات النظرية، دار التنوير، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

- من العقيدة إلى الثورة، الإنسان الكامل (التوحيد)، دار التنوير، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

- من العقيدة إلى الثورة، الإنسان المتعين (العدل)، دار التنوير، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

- من العقيدة إلى الثورة، النبوة والمعاد، ن. مكتبة مدبولي، ١٩٨٨م.

- من العقيدة إلى الثورة، الإيمان والعمل (الإمامة)، ن. مكتبة مدبولي، ١٩٨٨م

- من الفناء إلى البقاء.. محاولة لإعادة بناء علوم التصوف، الوعي التاريخي.. دار المدار الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.

- من الفناء إلى البقاء.. محاولة لإعادة بناء علوم التصوف، الوعي الذاتي.. دار المدار الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.

- من النص إلى الواقع.. بنية النص، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.

- من النقل إلى الإبداع.. النقل، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٠م.

- من النقل إلى التحول.. النقل، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠١م.

- الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.

- اليمين واليسار في الفكر الديني، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، دار علاء الدين دمشق، ١٩٩٦م.